«يا مال الشام»... شكراً «بيت الدين»!

بيار أبي صعب

تشيلو مراد سونغو يشق بآهاته الحزينة ليل بيت الدين. يحاور لينا شاماميان، بفستانها الابيض، المتلألئ، الطالع من ألف ليلة. «فستان العروس» أربك حركتها في البداية، فشدّتنا إليها أكثر إذ استعدنا الاطلالات الاولى لمغنية سوريّة خجول أدهشتنا بنبرة صوتها وقوته قبل سنوات ليست بالبعيدة. لينا التي نضجت، تقف أمامنا الآن في قصر المير بشير، بشعرها الأصهب «الفريزيه» العبي، وتؤدّي «آ كابيلا» (بلا مرافقة) «أورور/ شهرزاد»، وهي تنقر على آلة السانسولا في حضنها، تهويدة كان والدها يغنيها لها بالأرمنية كي تنام. نوع من «يلا تنام»، لكن طير الحمام لا يُذبح هنا، بل يطير إلى البلد المعذّب ليستعيد الزمن الضائع... ستهديها إلى أطفال سوريا كي يستعيدوا ذات يوم سعادتهم، ويناموا أخيراً تحت سماء وطن تغمره الطمأنينة («يا طير الحمام، طير وخود لحلب السلام»). أهدتها أيضاً إلى أطفال العالم، إلى أطفال فسلطين ولبنان، وكل الذين يفتقدون العدالة والسلام. قبلها، شربل روحانا الذي بدأ بـ «الحدو» («...ويا صواتنا غني الامل/ وانشالله بكرا فرحانين») قال أيضاً كلاماً عن الراهن النازف، وعن اللاجئين الذين يتساوون في البؤس مع اللبنانيين. بعد قليل، في الجزء الثالث من الأمسية، ستتكرر هذه اللحظات السحرية حين يحاور عود نصير شمّة بيانو ألكسندر غروغ، فيبعثان سيّد درويش «زوروني» في سياق مقطوعة «من الذاكرة»، يرصّعها المؤلّف وعازف العود العراقي بألحان تراثية قبل أن ينوّع عليها بمقطوعات من تأليفه.

كل ذلك كان ليلة السبت، في سهرة نادرة من سهرات «مهرجانات بيت الدين»، بعنوان «يا مال الشام». سهرة استثنائيّة ضمن ويك اند استثنائي في صيف لبنان 2016، بدأ الجمعة في «بعلبك» مع كركلا «ع طريق الحرير» (لولا صعود أمين الجميل غير المبرر إلى المسرح في الختام، مغتصباً المشاهدين الذين لم يأتوا للقائه وسماع درره عن «المقاومة بالفن والثقافة»)، وانتهت أمس الأحد في «بيبلوس» مع الجوهرة السمراء غرايس جونز التي أدخلتنا في نوبة من الحنين إلى الثمانينيات. لقد ركّبت لنا لجنة «بيت الدين»، خلطة سحريّة، تحت عنوان احياء التراث الشرقي، على يد فنانين مكرسين من الجيل الجديد، من العراق وسوريا ولبنان، وعلى شكل تحيّة إلى الشام، جارتنا الجريح. تمحور البرنامج حول المؤلفين/ المؤدين الثلاثة: شربل روحانا (عود)، ونصير شمّة (عود)، ولينا شاماميان (غناء)، رافقتهم فرقتان موسيقيتان بقيادة المايسترا كاتيا مقدسي وورن: أوركسترا «أوكتيكو» الكنديّة، والأوركسترا اللبنانيّة الشرقيّة.

شربل روحانا المعن في الفولكلور اللبناني، أخذنا إلى القرن الحادي عشر للقاء ابن حمديس الصقلي يغني لوعة الحب المقهور، وعاد بنا إلى قفشات أغنياته الواقعيّة النقدية، وأبرزها «بالعربي». لينا أدّت بعض أغنيات آخر ألبوماتها «غزل البنات» (2013)، بعضها من توزيعها وتلحينها، إلى جانب قصائد ماهر صبرا، وألحان غوكسيل بكتاغير. طبعاً من دون أن تهمل التراث (لو كان قلبي معي، لما بدا يتثنى)، بأداء خاص ونفس اوبرالي وبصوتها الحاد المطواع وقدراتها على التلوين، وتوزيع حميمي خاص. نصير شمّة، ابن المدرسة العراقيّة للعود، بدا مسيطراً على فنّه وتقنيته القويّة، أكثر من أي وقت مضى. مؤلفاته التي عزفتها الاوركسترا، مغمسة في جراح العراق (احدى المقطوعات مهداة إلى شهداء الكرادة)، عابقة بروح الشرق، تليق بأعظم الاوركسترات، وتفريداته على العود حنونة قاطعة. وفي القسم الأخير الذي كان ينتظره الجمهور، تشارك الثلاثي في اداء أغنيات تراثيّة ـ «من بلاد الشام» كما يقول البرنامج ـ يا رايحين ع حلب، يا مال الشام، قدك المياس، فوق النخل... إنّها الذروة الشعبيّة للاحتفال!

إذا كان دور المهرجانات الكبرى أن تخاطر، أن تبادر، أن تلعب دوراً في انتاج عروض لبنانية وعربية خاصة بها، فلا يمكننا الا ان نرفع قبعتنا لـ «مهرجانات بيت الدين الدولية» على هذه الرحلة الشيقة التي دعتنا اليها في شعاب الذاكرة الموسيقية المشرقية، عبر أمسية «يا مال الشام». لقد جمع المهرجان الموسيقي اللبناني وعازف العود شربل روحانا، الموسيقي العراقي وعازف العود نصير شمّة، وأخيراً المغنية السورية الأرمنية لينا شاماميان التي بدأت في السنوات الأخيرة في التأليف والتوزيع. هذه الخلطة السحرية اعطتنا امسية ستبقى في الذاكرة طويلاً، أمسية من المتعة والحنين واعادة امتلاك الذاكرة والمجاهرة بالهوية الحضارية في لحظة الهمجية التي تحدق بالمنطقة... إضافة إلى البعد الفني ـ الحضاري، لأمسية بيت الدين أيضاً بعد سياسي ـ اخلاقي: التضامن مع سوريا الجريحة، من دون متاجرات رخيصة ومحاولات احتواء لصالح الخطاب المعولم الذي يتقيأ علينا «ربيعاً عربياً» مزيفاً أجوفَ كل صباح وكل مساء. تحية بيت الدين هي من القلب، الى شعب جريح مشرد، دفع ثمناً غالياً بسبب فجور «العالم الحر». وقد وجه التريو نصير شربل لينا تحية الى شعوبنا الجريحة، من فلسطين الى العراق. وتضامنوا مع اللاجئين بصفتهم اهلاً وأخوة، لا عبئاً وخطراً داهماً كما يحاول أن يشيع بعض تجار الخوف والتعصب في الطبقة السياسية اللبنانية.

سينما

مهرجان وهران 2016
هواجس الفرد وهلع الحروب الأهلية

علي وجيه

بافتتاح الدورة التاسعة من «مهرجان وهران الدولي للفيلم العربي» (22 – 27 يوليو) في «مسرح عبد القادر علولة»، يثبت الحدث السينمائي الأبرز في الجزائر استقراره واستمراره في التخصّص. مكان الافتتاح تغيّر. المدّة تقلّصت إلى النصف قياساً بالدورات السابقة. محافظ (رئيس) المهرجان الشاعر إبراهيم صدّيقي لم يخفِ تأثّر المهرجان بسياسة التقشّف، التي طاولت المشهد الثقافي في بلاد الأمير عبد القادر. مع ذلك، أكّد أنّه يجري «في ظروف عادية». حديث وزير الثقافة عز الدين ميهوبي عن «مراجعة منظومة السينما الجزائرية»، وأهمية صالات السينما، و«إعادة تهيئة البنية التحتية» فائق الأهميّة. وجود مهرجان عربي متخصص بسينما المنطقة ضروري، مع برمجة بيّن صدّيقي أنّها «تعكس في أغلبها الواقع العربي والراهن. تتناول مواضيع تتعلق بالإنسان وما يعيشه حقاً، إضافةً إلى تلك التي تتكلم عن تطلعات الشباب والشعوب، ومواضيع أخرى». المدير الفني الجديد الإعلامي محمد علال، يمتلك طموحاً ينطلق من دعم السينما الجزائرية، وصولاً إلى الاحتفاء بشكسبير، مروراً بجديد العدسة العربيّة المفتوحة على هواجس الفرد واضطراب الساحات وهلع الحروب الأهليّة. وهران هي «الباهية» المسترخية على ساحل المتوسط. موسيقى الراي والأغاني الشعبيّة في كلّ مكان. صحيح أنّ مكانة ابن المدينة الأشهر «الشاب خالد» مقدّسة، إلا أنّ هناك أسماء فرضت نفسها من الأجيال اللاحقة، مثل «الشاب بلال» و«الشاب حسني». هنا، تفوح رائحة ألبير كامو (1913 – 1960)، إذ كتب «الطاعون» و«الغريب». صفية العمري وفاروق الفيشاوي وأيمن زيدان وآسر ياسين ويوسف الخال ونيكول سابا وغيرهم من ضيوف المهرجان، على موعد مع جبل «مرجاجو» الكاشف للمدينة، عبوراً إلى جانب قلعة وكنيسة «سانتا كروز». الرقص على أغاني «الفقيرات» وإيقاع «الطبابلة» في مولد «سيدي عبد القادر» تجربة لا تفوّت.

34 فيلماً من 14 دولة، تتنافس على الوهر (الأسد في المحكيّة الوهرانية) الذهبي في ثلاث مسابقات رسميّة: الأفلام الروائية الطويلة (12 فيلماً)، والأفلام الروائية القصيرة (12 فيلماً)، والأفلام الوثائقية (10 أفلام). خارج المنافسة، تُقام ثلاث تظاهرات. «عروض الهواء الطلق» (16 فيلماً) تقترح في معظمها مختارات من السينماتك الجزائري، مثل «مسخرة» (2008) لإلياس سالم، و«بلديون» (2006) و«خارجون عن القانون» (2010) لرشيد بوشارب، إضافةً إلى عناوين عربيّة مثل «أنا وأنت وأمّي وأبي» (2016) لعبد اللطيف عبد الحميد. في جديده، يدلي السينمائي السوري بشهادته عن الحرب المستعرة التي تعيشها بلاده. هي المرّة الأولى التي يخوض فيها عبد الحميد المستنقع مباشرةً، بعدما أنهى شريطه السابق «العاشق» (2012)، تأخّر عرضه إلى عام 2015) بهتاف «واحد واحد واحد، الشعب السوري واحد». «بانوراما الفيلم القصير» تضمّ 8 أشرطة. «جسر إلى قسنطينة» تقدّم 3 أفلام أنتجت في إطار «قسنطينة عاصمة الثقافة العربية 2015»، هي: «وسط الدار» لسيد علي مازيف، و«لالة زبيدة وناس» لسوسن معالج، و«البوغي» لعلي عيساوي. «وهران 2016» يحتفل بمرور 50 عاماً (موقع المهرجان يصرّ أنّها 60) على إنتاج تحفة الإيطالي جيلو بونتيكورفو «معركة الجزائر» (الأسد الذهبي في مهرجان البندقية 1966)، التي تسجّل كفاح الجزائريين ضدّ الاستعمار الفرنسي. يحيي الذكرى 40 لإنتاج كل من «عمر قتلاتو» لمرزاق علواش، و«عودة الابن الضال» ليوسف شاهين، الذي أسهمت الجزائر في إنتاجه، وشارك السيناريست الجزائري فاروق بلوفة في كتابة حواره إلى جانب صلاح جاهين وشاهين نفسه. وهران تكرّم أبناءها «حميد ومصطفى وحزيم»، ثلاثي السلسلة التلفزيونية الفكاهية «بلا حدود»، التي رسمت الابتسامة على وجوه الجزائريين أيام العشرية السوداء. كذلك، يوجّه المهرجان تحيةً لسينمائيين رحلا أخيراً: السوري نبيل المالح، والجزائري محمد سليم رياض.

**السينمائي السوري محمد ملص يرأس لجنة تحكيم مسابقة الأفلام الروائية الطويلة. رشيد بوشارب يشارك بجديده الذي لم يلامس التوقعات «الطريق إلى إسطنبول» (92 د.). الأم البلجيكية تهلع لإقدام ابنتها على السفر إلى سوريا، فتقرّر اللحاق بها لإنقاذها من براثن التطرّف. لطفي بوشوشي حاضر بباكورته الروائية «البئر» (90 د.)، إذ يجد سكّان إحدى قرى الجنوب الجزائري أنفسهم محاصرين بجنود الاحتلال، فيقعون بين فكّي كمّاشة: العدوّ في الخارج، والعطش في الداخل. الشريط مرثية نضال محفورة بالوجع، ومنافس مدجّج بجوائز مسقط والإسكندرية ووجدة المغاربي. ريم الأعرج تكمل ثلاثية البلد المضيف بـ «الظل والقنديل» (82 د.). ابنة الروائي الشهير واسيني الأعرج توثّق إضراب الطلبة 19 أيار/ مايو 1956، وتضحيات النخبة الجزائرية المتعلّمة في مقاومة الاحتلال الفرنسي. الحرب السوريّة تحضر في «بانتظار الخريف» (113 د.) لجود سعيد، و«فانية وتتبدّد» (120 د.) لنجدة أنزور. في الأوّل، يُخطَف سينمائي من قبل جماعة متطرّفة، فيما تصرّ قرية حبيبته على الحياة. الثاني ردّ مباشر على إرهاب «داعش» وممارساته. من لبنان، يصل ميرجان بو شعيا بـ «فيلم كتير كبير» (107 د.). شريط محكم انطلق من «مهرجان تورونتو» وحاز ذهبية مراكش. مناخ عصاباتي متبّل بالطائفية والعنف وتوحّش الإعلام، يجيد التعبير عن عبثية الواقع اللبناني وتناقضاته. عمر شرقاوي أثار الكثير من الجدل بفيلمه المنهك للأعصاب «المدينة» (90 د.)، إثر عرضه الأول ضمن مسابقة «مهرجان دبي» الفائت. من دون حقن مورفين أو مبرّرات درامية أحياناً، يعرّي هذه المنطقة الملعونة من العالم. رؤية مظلمة قد لا تروق البعض، محمولة على تيمة «العودة إلى البيت». السينمائي يقيم ويعمل ويطوّر نفسه في الخارج، قبل أن يقرّر الالتفات إلى الجذور، وقراءة الأوطان والهويّة من منظور مختلف: لنعاين الأضرار على الأرض. شرقاوي يكتب ويمثّل ويقترح سينماتوغرافيا لافتة. مجهود هائل لا يعيبه سوى التشظّي والتفرّعات المبتورة في السيناريو. في باكورته الروائية «صمت الراعي» (104 د.)، يعتصر العراقي رعد مشتت الذاكرة المثقلة بمرارة النظام السابق، مستعيداً هول الإعدامات الجماعية والمقابر الصحراوية. الصغيرة «زهرة» تدفع ثمن الاستبداد الحكومي والعشائري، وصمت الشاهد الوحيد على ذلك. المصريّة هالة خليل تتلو بيان «الغلابة» عن ثورة 25 يناير من خلال «نوّارة» (122 د.)، التي تشهد التفاوت الطبقي المرعب بين حارتها المنسيّة و«كومباوند» الفيلا التي تخدم أصحابها. باستثناء حلم ساذج بالإفادة من استرداد أموال منهوبة في عهد النظام السابق، لم تأتِ الثورة بجديد إلى عالم «نوّارة» الزاخر بالشقاء. طرح لا يشبه ذاتية إبراهيم البطوط، بل إنّه أقرب إلى «فرش وغطا» (2013) لأحمد عبد الله، فيما يحاول «بعد الموقعة» (2012) ليسري نصر الله التوفيق بين التوجهين، ولو من منظور آخر. «نوّارة» منتشلة من واقعية روسيليني ودي سيكا وفيسكونتي الإيطالية، واستمرار لواقعية محمد خان وعاطف الطيّب وداود عبد السيّد وخيري بشارة، بألوان أخرى وصورة حديثة تبعث على التفاؤل، رغم ألم الطرح والنهاية المفتوحة. «صائد الجوائز» الإماراتي سعيد سالمين يرافق الفتى سلطان الذي يبحث عن جدّته في «ساير الجنة». فيلم طريق يحافظ على وصفة العوائق والمواقف الغريبة خلال الرحلة من أبو ظبي إلى الفجيرة. هناك شبكة لتهريب المتطرّفين إلى سوريا في «خسوف» (102 د.) لابن «المسرح الجديد» في تونس الفاضل الجزيري. أخيراً، يفتح المغربي سعيد خلاف ملف أطفال الشوارع في «مسافة ميل» (110 د.) بكلّ عسفه ووحشيته. الجزائري رشيد بن علال يقود لجنة تحكيم مسابقة الأفلام الروائية القصيرة. المنافسة تنحصر بين مرشح الأوسكار الذكي «السلام عليك يا مريم» (14 د.) لباسل خليل، والمحكم «حار جاف صيفاً» (32 د.) لشريف البنداري، والكوميدي الحاذق «غصرة» (26 د.) لجميل النجار. أيضاً، يشارك فيلمان سوريان، هما: «روزنامة» (15 د.) لنادين تحسين بيك، و«تساقط» (9 د.) لعلي العقباني في الوجبة الوثائقية، يبرز «أبداً لم نكن أطفالاً» (99 د.) للمصري محمود سليمان، مع سجلّ جوائز دولية من دبي (أفضل فيلم غير روائي، وأفضل مخرج) والأقصر وتطوان وميلانو.

يلاحق رشيد بوشارب أما بلجيكية تقرر السفر إلى سوريا لإنقاذ ابنتها من براثن التطرف

> الحرب السوريّة تحضر في «بانتظار الخريف» لجود سعيد، و«فانية وتتبدّد» لنجدة أنزور